

فلسفة السؤال والمسأل
عند أبى حيان المتوحيدى



أ.د. حامد طاهر (*)

السؤال رغبة في العلم ، أما التساؤل فهو أسلوب في التعلم . ولما يكاد يوجد مفكر عربي وصلتنا مؤلفاته مملوءة بالأسئلة والتساؤلات مثل أبي حيان التوحيدي ، صحيح أن الحارث المحاسبي (ت 243هـ) وضع كتابه "الرهاية" في صورة سؤال منه وإجابة من شيخه (المجهول) ، وصحيح أيضاً أن الحكيم الترمذي (ت 285هـ) قد طرح بدون إجابة (155) سؤالاً حول موضوع المولايية ، وظلت أسئلته مطروحة على الجميع إلى أن أجاب عنها محيي الدين بن عربي (ت 638هـ) في موسوعته الكبرى "الفتوحات المكية" .

لكننا مع التوحيدي نلتقى بنزعة غالبية في طرح الأسئلة ، وإثارة التساؤلات ، بل بفض متكامل يمكن أن نطلق عليه "فن السؤال والتساؤل" .

ومن المقرر أن لكل فن أصولاً وقواعد ، كما أن له غاية وأهدافاً ، وهو دائماً مرتبط بفلسفة عامة يصدر عنها ، ويتحرك في إطارها .

وإذا كان السؤال يعبر عن استفهام مباشر يطرحه التوحيدي على أحد أساتذته أو زملائه ليتلقى عنه إجابة محددة ، كما فعل مع مسكويه (421هـ) فإن التساؤل يتم طرحه على النفس ، أو كما فعل التوحيدي على أحد أساتذته الذين لا يمكننا أن نتأكد تماماً من أنهم قد أجابوه عنه ، أو حتى نتأكد من أنه قد طرح عليهم أساساً تلك الأسئلة ، كما فعل مع المسجستاني (ت حوالي 38) . 1) .

وأنا أميل إلى المشك في أن التوحيدي قد سأل المسجستاني بالفعل كل هذه الأسئلة ، كما أشك في أن المسجستاني قد أجابه عنها بتلك الصورة ، وأذهب إلى أن كلاً من الأسئلة والإجابات معاً هي من صنع التوحيدي . ومن أقوى الأدلة على ذلك ما نجده من نضج في

السئلة ، يتجاوز مستوى التلميذ الذي يسأل لكي يعرف ، بل إنها أقرب إلى أسئلة الصحفي المخضرم الذي يكون على دراية تامة بالموضوع ، ثم يختار شخصية مشهورة لكي يجعلها تنطق بما يريد(2). كذلك فإن الملاحظة الدقيقة للغة السؤال والإجابة تكشف عن نقاط تشابه كثيرة .

تؤكد كلها أنها من صنع شخص واحد (وأنا هنا أدعو إلى إجراء دراسة أسلوبية تهدف إلى استخراج البصمة اللغوية للتوحيدي ، ومقارنتها بأساليب الشخصيات التي أورد لها أقولاً في مؤلفاته.)

المعروف أن السؤال يطرحه الإنسان على ذوى الخبرة والمعرفة ليحيي به عنه ، وأن التساؤل هو السؤال الذي يطرحه الإنسان على نفسه ، إما مندهشاً أو متحيراً أو أحياناً متهمكاً - وقد استخدم التوحيدي الأسلوبين معاً . أما السؤال فكان مع فيلسوف الأخلاق مسكويه(3) .

ومسكويه فيلسوف معروف ومشهور . و آراؤه مبسوطة في كتبه التي وصلتنا بعضها . وأما التساؤل فقد استخدمه التوحيدي باسم المسجستاني(4) ، وكان من هؤلاء المثقفين الكبار الذين يميلون إلى إشاعة التنوير عن طريق الجلسات والمنتديات أكثر مما يركزون على تأليف الكتب والرسائل ، وربما كانوا أكثر علماً وثقافة من المؤلفين المحترفين(5) .

ويبدو لي أن التوحيدي قد استغل اسم هذه الشخصية الثقافية الكبيرة ليقدم من خلالها تصورات وآراءه ووجهات نظره في شتى مجالات المعرفة والثقافة في عصره ، إلى جانب أخلاقيات المجتمع وسلوكياته. وذلك مثلما فعل أفلاطون عندما قدم آراءه ونظرياته من خلال أستاذه سقراط . وهكذا فإن أسئلة التوحيدي - التي طرحها بصفة خاصة على المسجستاني - ليست أكثر من تساؤلات أى أسئلة مطروحة على النفس ، استخدم فيها اسم المسجستاني كما استخدم أفلاطون في محاوراته اسم سقراط(6) .

لماذا يلجأ المفكر إلى أسلوب السؤال والتساؤل ؟ هناك عدة أسباب ، ويمكن أن تكون كلها أو بعضها وراء ذلك . فهناك أولاً : حساسية الدهشة المفترطة لدى بعض المفكرين الذين يقضون من الكون والأحداث والبشر موقف الاستغراب ، أو محاولة الوصول إلى حقائق الأشياء ، وعللها البعيدة(7) . وهناك ثانياً : الشعور بالخشية من مواجهة الجو المسائد في المجتمع ببعض الآراء التي تخالفه ، أو تصدمه ، وبالتالي تثير الغضب على صاحبها .

وهناك ثالثاً : الرغبة في تعليم الآخرين ، والأخذ بأيديهم من حالة الجهل واللامبالاة إلى حالة المعرفة والاهتمام ، ثم هناك أخيراً : إحداث الصدمة الضرورية في بيئة تسيطر عليها المقولات الجامدة ، والمخاطب القاطع الوحيد .

إن الثقافة عندما تنتشر في مجتمع ما قد تتحول في لحظة معينة، وبفضل عوامل محددة، إلى حالة من الاستقرار الذي يكرس الثبات والتقليد والنمطية. وهنا لابد من أن تجدد الثقافة نفسها، بظهور بعض المفكرين الذين يفتحون في هذا الجدار المسميك ثقياً، أو يلقون في تلك البحيرة المراكدة بحجر. وفي هذه الحالة، يعتبر كل من السؤال والتساؤل مدخلاً ضرورياً لتحريك السكون، ودفع الواقفين إلى مواصلة المسير، وإطلاق راحة المواقفين!

لقد دارت أسئلة التوحيدى وتساؤلاته حول النفس البشرية، وأسرار الوجود، وخفايا اللغة، كما لمست أخلاق الناس، وتعرضت لمناهج التفكير، وتناولت علاقة الفلسفة بالدين، وصلة الأصيل بالوفاة، أو المحلى بالعالمى. وفي هذا الإطار قد لا تكون الإجابات مهمة بنفس القدر الذى ينبغي أن تكون عليه الأسئلة والتساؤلات، وذلك لسبب بسيط هو أن الإجابات تختلف في قوتها وضعفها، وتفاوت في صحتها واستمرارها، ولكن الأسئلة والتساؤلات تظل محتفظة بقيمتها، وخاصة عندما تدور حول القضايا الرئيسية المتصلة بالإنسان والمكون والمصير.

لقد اشتهر التوحيدى بما سبق أن أطلقه عليه ياقوت في معجم الأدباء بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وتنازعه الدارسون في مجالى الأدب والفلسفة. والواقع أن التوحيدى يمثل في الثقافة العربية نموذجاً يوجد أمثال له في الثقافات الأجنبية. وقد حاول الباحث الموسوعى الكبير عبد الرحمن بدوى أن يقيم علاقة تشابه بين التوحيدى وكافكا في مجال التشاؤم، والمنزعة العدمية(8).

ولكننى أختلف معه في ذلك. فالتوحيدى يدور في إطار بينما كافكا متحرر من أى إطار، والتوحيدى مؤمن يحيره الشك أحياناً، ولكن قلب كافكا فارغ من الإيمان، وأخيراً فإن التوحيدى يرتكز على مجموعة من المبادئ الأخلاقية والاجتماعية في حين أن كافكا يسعى إلى هدمها من الأساس.

وفي حدود معرفتى بالثقافة الفرنسية، أقول باطمئنان إن دور التوحيدى في الثقافة العربية يتشابه إلى حد كبير مع دور ميشيل دي مونتاني Mntagne في الثقافة الفرنسية(9)، وهو الدور الذى يتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه "إعادة النظر" فى كل ما يحيط بالإنسان، مع الغوص فى أعماقه للبحث عن أصل الوجود، وأسرار المكون، وختام الحياة. ومن الواضح أن "إعادة النظر" تتطلب عيناً تتوقف أمام المألوف على أنه غريب، وأمام المعادى على أنه زاهر مذهش، كما أنها ليست عيناً بطيئة الحدة، تنظر فى اتجاه واحد، بل هى عين واسعة الرؤية تنتقل بين العديد من الأشياء، وبسرعة كبيرة، وأحياناً خاطفة.

كيف يمكن للمثقف الجاد أن يعيد النظر فيما حوله؟ بوسائل متعددة، من أكثرها فعالية استخدام طريقة السؤال والتساؤل، التى كان يتقنها التوحيدى، موظفاً طاقته الأدبية فى حسن الصياغة، وتشقيق الكلام، وحشد المترادفات التى تمتلئ بها لغة غنية مثل اللغة العربية. يقول التوحيدى: "يا هذا! قد صرفت لك القول فى فنون من العبارة، على ضروب من الإشارة"(1). وعدم التنبيه لذلك هو الذى أدى بكثير من الباحثين إلى تصنيف التوحيدى فى مجال الأدب، مع أنه لا يستخدم الأدب وأدواته المتاحة فى عصره إلا كوسيلة للتعبير عن أفكاره الفلسفية، أو بمصطلح أدق: نزعتة الفكرية والأخلاقية.

لقد كان التوحيدي بدون شك يملك نفساً متطلّعة إلى المعرفة، وروحاً موسوعية تهدف إلى الإلمام بكل شيء، ولعل هذا هو السبب الذي جعله ينفر - في مطلع حياته من العزلة التي هي طابع المفكرين المتأملين، ويسعى بكل نشاط إلى المشاركة فيما يمكن أن نطلق عليه "المصادونات الأدبية" التي ازدهرت في عاصمة الخلافة، خلال القرن الرابع الهجري (11). وميزة هذه المصادونات أنك تلتقي فيها بالثقافة الحية، والأفكار التي تشغل الناس في حياتهم اليومية. لكنها من ناحية أخرى تضم إلى جانب رجال الفكر الرضيع: أدعياء العلم.

والمتمفهيقيين بالمعرفة، وأصحاب المنصب والثروة الذين يرغبون في استكمال وجاهتهم الاجتماعية برعاية الفنون والآداب. وهنا يجد المثقف الجاد نفسه في مأزق حقيقي: فلما أن يجارى المزيّف، والمنفاق، والمظهريّة، وإما أن ينسحب من الميدان تاركاً كل شيء. وهذا ما فعله التوحيدي في آخر حياته.

لقد قيل إنه قد انتهى من رحلة الرغبة العارمة في المعرفة، والشك والحيرة، والسؤال والتساؤل - يانساً أو مستسلماً، والدليل على ذلك ما نقرأه في آخر مؤلفاته "الإشارات الإلهية" (12) - الذي هو عبارة عن أطول مناجاة بشرية لله تعالى في اللغة العربية، وربما في سائر اللغات الأخرى. وفيه يقول: "إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرته، فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك، فلن يفوتك من قدرته ما يكفيك" (13) ويقول أيضاً: "ويحك! كيف تحكم بـ لم على خالق؟ أم كيف تحتج بالحجة على مظهر الحجة؟ أم كيف تدل بالعقل على منشئ العقل؟ أم كيف تباهي بالعلم واهب العلم؟".

ولكننا هنا ينبغي أن ننبيه إلى أمر هام، وهو أن حالة الاستسلام عن إدراك الحقيقة، أو إجابة الأسئلة والتساؤلات التي تظهر بوضوح تام عند التوحيدي في آخر مؤلفاته - لا يصح تعميمها على "المعرفة الإنسانية" بكل فروعها. فهو يقول بصراحة "إن الله وهب لك هذا الإحساس (جمع حس يعني حاسة) لتعتبر بها فيما ترى، وتسمع، وتذوق، وتشتم، وتلمس" (15) وإذن فالمقصود من الاستسلام هو العجز المبشّر عن الدخول بأبعاد القدرة الإلهية في سموها وتعاليتها. يقول التوحيدي: "من توجه إلى الله استسلم" (16) وهذا ما نجده عند كبار فلاسفة الصوفية على مر العصور.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة أولية لأسئلة التوحيدي، وجدنا أهم مؤلفاته في هذا الصدد، وهو كتاب (الهوامل والشوامل) (17) الذي طرح فيه (175) سؤالاً على مسكويه. وأول ما نلاحظه على تلك الأسئلة هو مدى التنوع الشديد فيما بينها. فهي تدور حول الإلهيات والطبيعيات والإنسانيات. وتلك هي الدوائر الثلاث، التي إذا أضيف إليها دائرة الرياضيات تمثلت أمامنا الموسوعة الفلسفية في إطارها الكلاسيكي، التي وصلت إلينا من الإغريق.

وكما تختلف أسئلة التوحيدي في مجالاتها السابقة، فإنها تتراوح بين البساطة والعمق. فهناك الأسئلة السهلة التي يمكن أن يشغل بها عامة الناس، وإذا سمعها أي إنسان تطلع إلى معرفة الإجابة عنها (بل من الممكن جداً أن تستغلها حالياً، أي مجلة معاصرة لتجذب بإثارتها القراء (ومن ذلك مثلاً:

- 1- لماذا توأصى الناس بكتمان الأسرار ، وتخرجوا من إفشائها ، ومع ذلك لم تنكتم ؟
- 2- ما السبب فى اشتياق الإنسان إلى ما مضى من عمره ؟
- 3- لم قبح الثناء فى الوجه ، وحسن فى المغيب ؟
- 4- لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص فى الخبر ، وآخر يزيد على عمره ؟
- 5- لم صار البنيان إذا لم يسكنه الناس تداعى عن قرب ، وما هذا هو إذا سكن واختلف فيه ؟
- 6- لم صارت غير المرأة على الرجل أشد من غيرة الرجل على المرأة ؟

وإلى جانب أمثال هذه الأسئلة البسيطة ، أو التى تبدو كذلك ، نلتقى بأسئلة أخرى تؤدى مباشرة إلى ما نطلق عليه "المتفلسف" ، أى تأمل أحداث الحياة من منظور فكرى يسعى للفهم ، ومحاولة إزالة الغموض أو التناقض عن المعنى الكلى للحياة والكون ، ومن ذلك :

- 1- ما وجه الحكمة فى آلام الأطفال ، ومن لا عقل له من الحيوان ؟
- 2- ما علة كثرة غم من كان أعقل ، وقلة غم من كان أجهل فى الأفراد والأجناس .
- 3- لم كلما شاب البدن شب الأمل ؟ وهل اشتمل الأمل على مصالح العالم ؟ وإن كان مشتملاً فلم توأصى الناس بقصر الأمل ، وقطع الأمانى ؟
- 4- لم اشتد عشق الإنسان لهذا العالم حتى لصق به ، وأثره ، وكدح فيه ، مع ما يرى من صروفه ونكباته وزواله بأهله ؟
- 5- لم كان فرج الإنسان بنى ما لم يحتسبه ويتوقعه أكثر من فرجه بدرك ما طلب ، ولحوق ما زال ؟
- 6- لم صار اليقين إذا حدث وطراً لا يثبت ولا يستقر ؟ والشك إذا عرض أرسى ورض (أى استقر) ؟

ثم إن هناك مجموعة من الأسئلة ، تتجه إلى تفسير الظواهر والتغيرات الطبيعية ، وتستدعى بالتالى نوعاً من المعرفة التجريبية ، وحثاً عليها . ومن ذلك :

- 1- ما الحكمة من وجود الجبال ؟
- 2- لم صار البحر فى جانب من الأرض ؟
- 3- لم صارت مياه البحر ملحاً ؟
- 4- لم كان صوت الرعد إلى آذاننا أبطأ وأبعد من رؤية البرق إلى أبصارنا ؟
- 5- على ماذا يدل انتصاب قامة الإنسان من بين سائر الحيوان ؟

وأخيراً ، هناك مجموعة من الأسئلة تشير - بصورة غير مباشرة - إلى نقد اجتماعى ، وتعبر بذاتها عن موقف أبى حيان نفسه من بعض الظواهر والمفارقات التى تحدث فى المجتمع ، وتنتشر فى الحياة الثقافية ، ومن ذلك :

- 1- ما بال أصحاب التوحيد لا يخبرون عن المبادئ البنى الصفات ؟
- 2- ما الفرق بين العرافة والكهانة والتنجيم والطرق والعيافة والمزجر ؟ وهل تشارك العرب فى هذه الأشياء أمة أخرى ؟
- 3- ما علة كراهية النفس الحديث المعاد ؟ وما سبب ثقل إعادة الحديث على المستعاد ؟ وليس فيه فى الحال الثانية إلا ما فيه فى الحالة الأولى ؟ فإن كان بينهما فارق فما هو ؟
- 4- لم صار الإنسان إذا صام أو صلى زائداً على الفرض المشترك فيه حقر غيره ، وتكبر حتى كأنه صاحب الوحى ، أو الواثق بالمغفرة والمنفرد بالجنة ، وهو مع ذلك يعلم أن العمل معرض للأفات التى تحبطه وتجعله هباء منثوراً ؟
- ولعل من أوضح الأمثلة فى هذه المجموعة ما نجده فى السؤال التالى ، وما ألحقه به التوحيدي من تعليق حاد ، يكاد يصادر به على الإجابة المطلوبة ، إن كان الأمر - من وجهة نظره - يحتاج إلى إجابة :
- 5- ما الذى سوغ للفقهاء أن يقول بعضهم فى فرج واحد : هذا حرام ، ويقول الآخر فيه بعينه هذا حلال ؟ وكذلك المال والنفس ؟ كلام هذا يوجب قتل هذا ، وصاحبه يمنع من قتله . ويختلفون هذا الاختلاف الموحش ، ويتحكمون هذا التحكم القبيح ، ويتبعون الهوى والشهوة ، ويتسعون فى طريق التأويل ، وليس هذا من فعل أهل الدين والمورع ، ولما من أخلاق ذوى العقل والتحصيل . هذا وهم . يزعمون أن الله قد بين الأحكام ، ونصب الأعلام ، وأفرد المخاص من العام ، ولم يترك رطباً ولما يابساً إلا أودعه كتابه ، وضمّنه خطابه !
- والذى يعيد تأمل هذه المجموعات التى سبقت من الأسئلة سوف يلاحظ قاسماً مشتركاً بينها جميعاً ، وهو أن السؤال يتجه إلى محاولة التعرف على (علة) الشئ ، أو (حكمته) ، ولذلك يستخدم فيها أداة الاستفهام (لم) ، وحتى عندما يستخدم أداة أخرى مثل (ما) فإنها تلحق مباشرة بكلمة (علة) أو (حكمة) . ومن المعروف أن البحث عن العلة كان وما يزال هو الطابع (العام) للفلسفة ، بينما اتجه العلم إلى البحث عن الكيفية ، أى خصائص الشئ وصورته هذه الخصائص من أجل الاستفادة المباشرة منها .
- لكن السؤال الفلسفى ، من ناحية أخرى ، حين يتجه إلى البحث عن العلة ، لا يكون عامّاً فى كل الأحوال . فهناك العلة القريبة والمباشرة □ والعلة البعيدة أو الغائية . والفيلسوف حين يطرح أسئلته لمعرفة العلل القريبة فإنه يقدم خدمة جيدة للعلم ، وخاصة فى مجال نشأة الظواهر ، وتتابعها ، أو اتصال بعضها ببعض .

كذلك فإن هناك من الأسئلة الفلسفية ما يعد نوعاً من (التحليل العقلى) الذى يساعد فى التعرف على بعض جوانب المظاهرة أو جزئياتها ، وذلك بالإضافة إلى أن معظم الأسئلة الفلسفية تهدف إلى (التركيب العقلى) أى وضع الإجابات الصغيرة والمبعثرة حول ظاهرة ما فى إطار كلى شامل .

ويبقى أن السؤال الفلسفى يحمل فى ذاته دعوة إلى البحث ، والتعرف ، والاكتشاف . وهو بذلك كله يمهد البيئة المناسبة للبحث العلمى الذى يمكنه أن يسترشد بعلامات الاستفهام الفلسفية ليحدد الأرض التى يقيم عليها بناءه .

من هنا ، ينبغى أن ندرك قيمة الدور التمهيدى الكبير الذى أداه التوحيدي للثقافة العربية عن طريق استخدام السؤال والتساؤل ، وما يمكن أن يحدثه ذلك من تحريك السكون ، وغربلة المتوارث ، وفتح آفاق جديدة ومتجددة للمعرفة .

لقد كان على العلماء - حينئذ - أن يبدأوا العمل من تلك البيئة الجديدة التى أعدها لهم التوحيدي ، وكان على من أتى بعده من المفكرين أن يكونوا أكثر جرأة واقتحاماً ، وكان من الضرورى أن يستمر إنتاج الأسئلة وطرح التساؤلات حتى لا يخيم شبح الركود ، والمسلّمات القطعية التى لا تقبل نقاشاً ، ولما تتحمل إعادة النظر !

لكن ماذا حدث للثقافة العربية بعد التوحيدى ؟

عادت الغلبة لاستقرار الحلول السابقة التى أيدعها الأجداد فى ظروف مختلفة ، وتكونت هالات التقديس حول كثير من الأسماء غير المعصومة من الخطأ ، واستعان كثير من العلماء بالسلطة الزمنية لفرض آرائهم على مجرى الحياة ، بدلاً من أن يتركوا تلك الآراء لقانون التجربة ، وما يفرضه من معايير الصواب والخطأ . وفى مجال التعليم الذى يسبق الثقافة ويمهد لها - صار التلقين والحفظ والمشرح والتلخيص هى الأعمدة الأساسية التى يقوم عليها صرح الثقافة العربية .

وإذا كانت المقدمات تؤدى دائماً إلى نتائجها ، فقد كان من أهم هذه النتائج

:

اختفاء الإبداع ، ومحاربة التجديد ، وغياب روح الدهشة ، وضمور فن السؤال والمسؤول

.

* □ *